الفصل السابع

المنهج ومجتمع المعرفة

المعرفة الجديدة والمتجددة.. هل تمثل تحدياً سافراً للمنهج التربوى؟!

يتطرق هذا الفصل لدراسة الموضوعين التاليين:

- جدوى تغير المنهج التربوى ليواكب مجتمع المعرفة.
- المعرفة الجديدة والمتجددة فى المنهج التربوى على المستويين: الحاضر والمستقبل.

تمهيد :

كتبت مديحة النحراوى، بتاريخ ٢/٨/ ٢٠٠٠، فى جريدة الأهرام، تحت عنوان: «الجامعات الإلكترونية»، مايلى[١]:

لعل أفضل واجهة لشبكة الإنترنت هى جامعات الإنترنت التى تفتح أبوابها للملايين من مختلف أنحاء العالم للتعليم الجامعى لدرجة أن جامعة هارفارد اضطرت لتقديم بعض مناهج كلياتها على الشبكة حتى لا تتخلف عن الموجة الراهنة والمتلاحقة، ويعد الطفل سعود حدادى الإيرانى الأمريكى معجزة تعلم الكمبيوتر حيث أنهى دراسته الثانوية وعمره ٧ سنوات والجامعية وعمره ١٢ عامًا.

ورغم أن الجامعات الأمريكية تتنافس على اجتذابه فإنه فضل التمسك بجامعته بكاليفورنيا لينهى أبحاثه بمساعدة الكمبيوتر فى التغلب على مرض (الشلل الرعاش) الذى يهدم المخ ويحطم الذاكرة، لذلك فإن شبكة الإنترنت أصبحت أكبر من مجرد نقل لما يجرى فى حجرة الدراسة العادية؛ لإعداد مقررات باستخدام الصور المتحركة والفيديو كليب، حيث أصبح عدد الملتحقين بها نحو ٦ ملايين طالب، وبلغت استثماراتها نحو نصف مليار دولار.

إن التعليم بالكمبيوتر يمكنه أن يحل مشكلات الأعداد الكبيرة للدارسين، واختلاف الفروق الفردية بين الدارسين. أيضا، يتميز بالصبر ولا يشعر بالتعب مقارنا بالمدرس البشرى؛ مما يخفف الضغوط النفسية التى تحيط بالعملية التعليمية فلا تفلت أعصاب المدرس، ولكننا ما زلنا فى احتياج شديد لمدرسين من خبراء الكمبيوتر، ليصنعوا نهضة حقيقية فى تعليم صغارنا، وأيضا فى حاجة لوعى ضرورى بأهمية الكمبيوتر فى حياتنا.

أيضا، نشرت جريدة **الأهرام**، بتاريخ ١/٨/ ٢٠٠٠، الخبر التالى تحت عنوان: «كلينتون يدعو لاستخدام تكنولوجيا المعلومات فى تعميق الديمقراطية»[٢]:

دعا الرئيس الأمريكى بيل كلينتون حكومته إلى استخدام تكنولوجيا المعلومات فى توسيع نطاق الديمقراطية وتعميقها داخل المجتمع الأمريكى، وقال ـ فى تصريحات أدلى بها أثناء افتتاح ثالث عملية تطوير يشهدها موقع البيت الأبيض على الإنترنت.

إننا بدأنا نفهم جيدا كيف تغير تكنولوجيا المعلومات من حياتنا، وهذا يعنى أن الحكومة عليها مسئوليات لاستخدام هذه الأدوات الجديدة لتوسيع الديمقراطية، وإعطاء الفرصة لمزيد من الناس لتحقيق أحلامهم.

وقال كلينتون: إن التطوير الأخير لموقع البيت الأبيض على الإنترنت يعتبر خطوة فى جهود إدارته لجعل الحكومة ذات سرعة وتقنية عالية وسهلة فى التعامل معها، وأعرب عن فخره بكونه الرئيس الذى أدخل البيت الأبيض إلى العصر الرقمى، وأضاف قائلا: منذ ست سنوات مضت، أطلقنا الإصدار الأول من موقع البيت الأبيض على الشبكة، وأصبح الموقع الآن يضم أكثر من ٩ آلاف صفحة من المعلومات، بالإضافة إلى الأرشيف، وأشار إلى أنه جعل الموقع ضمن مسئوليات المدير التنفيذى لمكتب الرئيس، ولذلك فإن الرئيس المقبل سيكون قادرا على تغييره ليناسب احتياجاته بالسهولة نفسها التى يمكن أن يغير بها الأثاث فى المكتب البيضاوى.

تقول الإحصاءات إن موقع البيت الأبيض يستقبل ١,٢ مليون عملية دخول على صفحاته، ويقدم معلومات تاريخية وتعليمية وثقافية وسياحية، تتنوع ما بين القيام بجولة داخل البيت الأبيض، وإلقاء نظرة على ميلاد نجم عبر عدسات تلسكوب الفضاء هابل.

وإذا ربطنا بين موضوع الجامعات الإلكترونية وموضوع تكنولوجيا المعلومات فى تعميق الديمقراطية، لاكتشفنا مدى التوافق وثيق الصلة

بين الموضوعين، إذ إنهما بمثابة العنصر المشترك الذى يحكم ويتحكم فى مجتمع المعرفة، على أساس أن هذا المجتمع يعكس مدى التدفق المعلوماتى الذى يشهده العالم الآن، من خلال تكنولوجيا الاتصال الجديدة، وعلى رأسها شبكة الإنترنت، وعلى أساس أن مجتمع المعرفة لن تقوم له قائمة حقيقية، دون وجود الديمقراطية كسند حقيقى يحميه ويعضده، ويقدم له جميع السبل للسير قدمًا للأمام.

ولكن، فى ظل مجتمع المعرفة، تكون المعلومات: جديدة ومتجددة، وثابة ومتلاحقة، نظرية وتقنية، فكيف يمكن للمنهج التربوى أن يعكس هذا الفيض الغزير من المعلومات فى محتواه؟، وهل يتوافر الوقت لفحص المعلومات المتوافرة لتضمينها فى محتوى المنهج، فى ظل النمو الهندسى لدالة المعلومات؟، وإذا فرضنا إمكانية تحديد وفحص المعلومات التى ينبغى أن يتضمنها محتوى المنهج، فما أنسب الأساليب والطرائق لتقديم هذه المعلومات للمتعلمين؟ ولتقويم مستوى أداء المتعلمين أنفسهم فى تلك المعلومات؟

الحقيقة، تمثل تكنولوجيا المعلومات فى مجتمع المعرفة تحديًا سافرًا للمنهج التربوى، فى ظل النظام التعليمى التقليدى، المعمول به فى الدول النامية، وذلك ما نحاول التصدى له فى الحديث التالى:

جدوى تغيير المنهج التربوى ليواكب مجتمع المعرفة:

إذا نظرنا إلى التعليم فى ثوبه القديم، وجدنا أنه يقوم على أساس انتظام المتعلمين فى أبنية يطلق عليها المدارس أو الجامعات، حيث يتم تشييد هذه الأبنية عن قصد، ليقوم المعلمون فى المدارس أو أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات، بتعليم الدروس: النظرية والعملية على السواء، من خلال مقررات، يتم إعدادها سلفًا.

لقد كانت الصيغة السابقة للتعليم مناسبة جدًا، لجميع أطراف العملية التعليمية، قبل التدفق المعلوماتى الرهيب عن طريق شبكات الإنترنت. ولكن،

بعد التدفق المعلوماتى، لم تعد الصيغة السابقة مناسبة أبدًا، إذ من غير المقبول أن يتعلم المتعلم من كتاب مطبوع بعد أن ظهر الكتاب الإلكترونى، وأيضا من غير اللائق أن يتعلم المتعلم من منهج بعينه يتم إعداده سلفًا، وأمامه سيل جارف من المعرفة فى شتى المجالات والتخصصات، وليس فى نطاق محدد بعينه، يستطيع أن ينهل منها ما يشاء بسهولة ويسر، مثلما فعل الطفل **سعود حدادى**، الذى أشرنا إليه فى التمهيد.

إذاً، لابد من تغير المناهج الحالية، لتواكب مفهوم الألفية الجديدة، وخاصة أن الأشياء التكنولوجية المتطورة سوف تجعل من الفرد إنسانًا جديدًا مختلفًا، إذ إن طبيعة الألفية الجديدة وظروفها، سوف تنتج تفاعلات عميقة، يكون لها صداها المباشر والملموس على الطبيعة الإنسانية ذاتها.

بمعنى: إن التقدم التكنولوجى، والبحث العلمى الذى يجرى وفق القواعد المنهجية المنضبطة، لابد وأن يترتب عليهما آثار سياسية واقتصادية وثقافية، تؤدى بدورها لتحقيق تغيرات نفسية واجتماعية وثقافية وتعليمية عند الأفراد.

أيضا، سوف تسهم تكنولوجيا المعلومات فى تغير شكل الحياة بالنسبة للإنسان بطريقة جذرية، بما يتوافق مع حياة وعقل وقيم أولئك الذين ينتجون أو يصنعون تكنولوجيا المعلومات. ونتيجة لذلك، بات الإنسان «مطالب بألا يعول كثيرًا على المجتمع للحفاظ على شخصيته، فهو يجب أن يعتبر نفسه مثّالاً (صانع تماثيل)، يصنع نفسه بنفسه، ومن ثم يجب عليه أن يعنى بصحته وتعليمه، ذلك لأن الارتقاء بالمهنة يتوقف على الحصول على مستوى معين من التعليم والمحافظة عليه. لذلك فإنه مطالب أيضًا بأن يزود نفسه بالكتب التى تعينه على الثقافة، وأن ينتظم فى المقررات الدراسية ـ خاصة الجامعية ـ اللازمة لبناء شخصيته»[٣].

كذلك، فى ظل الدعوة لمدارس وجامعات بلا أسوار، حيث يمكن للمتعلم أن يحصل على المعلومة فى أى مكان أو زمان، وحيث يمكن للمعلم أن يتفاوض مع

زملائه الآخرين فى الأمور العلمية، وأن يناقش المتعلم فى المسائل التى تتطلب رأيه ومشورته، أصبحت الأدوار التقليدية للمدرسة ذاتها، ولكل من المعلم والمتعلم، لا تتوافق مع ظروف العصر وإمكاناته. لذا، فإن تصميم المنهج التربوى فى ثوبه القديم، أصبح غير مناسب فى مجتمع المعرفة، وأن تقديم المنهج التربوى كتعيين جاهز لجميع المتعلمين بلا استثناء، غير مرغوب فيه.

خلاصة القول، فى مجتمع المعرفة، لم يعد المنهج التربوى فى صورته المتعارف عليها، مناسبًا ليكون الأداة الفاعلة لتحقيق الأهداف التربوية المأمول تحقيقها فى عصر العولمة.

والآن، نتحدث بالتفصيل عن لزومية تغير المنهج التربوى فى مجتمع المعرفة، فنقول:

تتنامى فى حياتنا الآن حضارة جديدة، تجلب معها أساليب معيشية جديدة، وتسهم فى تغيير أساليب العمل وطرائق التعامل المتعارف عليها، وتتبنى نظاماً اقتصاديًا وسياسيًا جديدًا، وفوق ذلك تنمى عند الإنسان وعيًا يجعله قادرًا على الربط بين العلاقات المختلفة، وعلى فهم التغيرات التى يموج بها العصر.

وجدير بالذكر أن تغيرات العصر، رغم أنها مربكة مزعجة، فإنها ليست فوضوية، أو عشوائية، إذ إنها تشكل نمطًا محددًا يمكن رؤيته بوضوح. وتتسم تغيرات العصر، بأنها تغيرات تراكمية، تؤدى إلى تحول عملاق فى الطريقة التى نعيش بها، وفى وسائل العلاج، وفى هيكل التعليم، وفى نوعية المعرفة وكثافتها، . . . إلخ.

وإذا حصرنا الحديث عن تغيرات العصر بالنسبة لمجتمع المعرفة، نقول إن التغيرات العلمية النظرية والتقنية العملية، هى التى صنعت مجتمع المعرفة نفسه، إذ أسهمت هذه التغيرات فى ظهور علوم نظرية جديدة ومستحدثات تقنية حديثة، بمعدلات تفوق كل تخيل وتصور، لدرجة أن التدفق المعلوماتى وما يصاحبه من تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الصناعة، أصبح من الصعب السيطرة عليه أو

امتلاك ناصية أو زمام أموره. ولا نغالى القول، إن زعمنا بأن العلم الآن، بات قوة فاعلة، تفوق فى تأثيرها قوة المال وقوة السلاح، لذا تقاس قوة الأمم حاليا، بما تملكة من عقول قادرة واعدة.

تأسيسًا على ما تقدم، تظهر جدوى تغير المنهج التربوى بما يواكب ظروف ومتطلبات مجتمع المعرفة، خاصة أن المجتمع يركن إليه مسئولية إعداد العقول الوثابة، التى تستطيع أن تتحمل مسئوليات الحاضر والمستقبل، على السواء، وخاصة أن ثقافة الاختيار التى يعبر عنها سياسيًا بالديمقراطية، والتى قامت على أسس اقتصادية لارتباطها بمنطق السوق، سوف تقدم الوسيلة لكى يكتسب الإنسان درجة من حكم الإنسان لنفسه autonomy، مثلما هو الحال بالنسبة لتعليم الإنسان نفسه بنفسه.

وعلى صعيد آخر، وفى ظل **(وثيقة الحقوق)**، التى تقنن حقوق وواجبات كل مواطن فى أمريكا، وكما تمت صياغتها من قبل خمسة وخمسين فردًا، يقول **الفن وهايدى توفلر** فى هذا الشأن، ما يلى:

«إن هؤلاء العظماء الذين صاغوا هذه الوثيقة الرابعة قد استشعروا ـ وهم ينصتون إلى الأصوات البعيدة القادمة من الغد ـ أن ثمة حضارة تندثر، وأخرى جديدة تولد وتتكون، وهذه الأخيرة هى الحاضر الذى يعيشه الأمريكيون الآن. إنهم، أى واضعى الدستور، قد أدركوا مفهوم« التقادم السياسى» Political Obsoles-cence.

إذًا، السياسة تبلى، وتصبح عقيمة عتيقة، بفعل التقادم، لذا يرى الذين حرروا (وثيقة الحقوق) أهمية تغيير دستور الولايات المتحدة، لتوسيع حقوق الأفراد، بحيث يؤخذ فى الاعتبار التهديدات، والأخطار التى تتعرض لها الحرية، حتى يتسنى للأمريكيين بناء هيكل جديد لحكومة قادرة على أن تتخذ القرارات الواعية الذكية، وتضع نظامًا ديمقراطيًا يضمن بقاء أمريكا قادرة على

مواجهة الموجة الثالثة فى القرن الحادى والعشرين، وذلك يتوافق مع رؤية جيفرسون Jefferson، وهو واحد من ذلك الجيل المؤسس للولايات المتحدة، حيث إنه أعلن أن الدساتير ليست نصوصًا مقدسة غير قابلة للتغيير(٤).

فى ضوء الحديث آنف الذكر، فإن تغير المنهج التربوى بما يتوافق مع معطيات العصر وتحدياته، بات ضرورة مهمة، خاصة وأننا نعيش فى عصر، يجب أن تسير فيه القوانين والنظم واللوائح التى تحكم العلاقات بين الأفراد بعضهم البعض، والتى تتحكم فى نظم العمل فى الهيئات والمؤسسات والمصانع والبنوك... إلخ، جنبًا إلى جنب مع تقدم العقل البشرى، الذى أفرز وصنع مجتمع المعرفة، الذى تندرج تحت مظلته العلوم الحديثة والتقنيات المتقدمة والاكتشافات الجديدة، وما واكبها من ظهور آراء ورؤى جديدة، وما صاحبها من سلوكيات وأخلاقيات جديدة أيضًا.

والخلاصة، أصبحت المعرفة هى البديل النهائى والمورد الأساسى فى شتى المجالات والميادين لأنها تقلل الحاجة إلى المواد الخام، والعملة، والوقت، والمكان، ورأس المال،.. إلخ، لذا فإن تغير المنهج من أجل تحقيق التناغم والتوافق بين موضوعاته، بما يناسب الفيض الغزير من المعلوماتية التى تحققت فى مجتمع المعرفة، بات ضرورة مهمة وواجبة، بشرط أن يتضمن المنهج التربوى بعض صنوف وألوان المعرفة الجديدة والمتجددة، التى تناسب الحاضر والمستقبل على السواء، وذلك ما يوضحه الحديث التالى:

المعرفة الجديدة والمتجددة فى المنهج التربوى على المستويين: الحاضر والمستقبل:

نشرت عالمة النفس البرازيلية **آنار ماريا نيكولاتشى داكوستا** بحثًا، بعنوان: «الوقوع فى قبضة الشبكة العنكبوتية: الإنترنت والإنسان الجديد»، أشارت فيه إلى سمات الإنسان الفضائى الجديد، الذى سيتخلق نتيجة التعامل المستمر مع شبكة الإنترنت، حيث لاحظت أن هذه السمات تلحق بالمتعاملين مع الشبكة، مهما كانت أعمارهم وما إذا كانوا صغارا أو شبابا وكبارا، كما أن التغييرات تلحق

الرجال والنساء بالدرجة نفسها، على الرغم من أن الرجال كانوا هم الأسبق فى التعامل مع الإنترنت، غير أن متغير القومية كان فارقا فى التمييز بين اتجاهات مستخدمى الإنترنت، فقد لوحظ أنه فى أوروبا يسود اتجاه محافظ ازاء الإنترنت، فى حين هناك اتجاه منفتح يبدو فى الإقبال الشديد عليها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية.

والآن: ما «بروفيل» الإنسان الجديد؟

يمكن تحديد الإجابة عن السؤال السابق، فى الآتى:

١- تبين أن الإنسان الجديد يتسم بحب الاستطلاع الشديد، ويشعر أنه يشارك فى ثورة كبرى، هى ثورة الاتصالات الجديدة، ويدرك أنه يشهد تغيرات جذرية على مستوى العالم.

٢- يتسم الإنسان الجديد بالروح العملية، والتى تظهر فى اتجاهه إلى استخدام الإنترنت للبحث عن فرص العمل الجديدة المتاحة.

٣- الإنسان الجديد تربطه علاقات حميمة مع جهاز الكمبيوتر الخاص به؛ لدرجة أن بعض حالات البحث اعتبرت أن جهاز الكمبيوتر المحمول يعد امتدادا حقيقيا له!

٤- الإنسان الجديد تتولد لديه طرق جديدة لإدراك العالم من حوله، وتنظيم خبراته، من خلال استخدامه لمفاهيم جديدة. فمفهوم «الفضاء المعلوماتى Cyber Space» يعنى بالنسبة له مكانا ليس له وجود فيزيقى؛ حيث تحدث فيه «أشياء غير واقعية». أما الحقيقة الافتراضية Virtual فهى بالنسبة له الواقع غير الواقعى.

٥- من أبرز السمات الجديدة نشوء طرق جديدة للتفكير لدى مستخدمى الإنترنت، ولديهم شعور عام بأن أى شىء يمكن أن يرتبط بأى شىء آخر فى شبكة الإنترنت، ولكن: ما الطرق الجديدة للتفكير؟

أصبح التفكير لدى هؤلاء متحركا ومتكاملا ومرنا، وتأتى سمة الحركية فى الفكر من الواقع، الذى مؤداه أن الشخص أصبح يعرف كثيراً من الأمور فى

أقل وقت ممكن، بحكم التعدد اللانهائى لمصادر المعلومات والمعرفة فى الإنترنت.

وبالتالى لا يمكن فى هذا السياق أن تتجمد المعرفة؛ لأنها ستتجدد على الدوام، أما تكامل المعرفة فهو نتيجة طبيعية لزوال الحدود بين التخصصات العلمية المختلفة على الشبكة، فهناك مواقع تعالج الظواهر المختلفة من زوايا مختلف التخصصات فى العالم الاجتماعى المعاصر، مما من شأنه القضاء على التفكير الأحادى، أو المنغلق داخل علم اجتماعى محدد. وتبرز أخيرا سمة المرونة فى التفكير بحكم تعدد المواقع المعرفية، والتى من شأنها أن تبرز وجوه الحقيقة المتعددة. وقد يؤدى ذلك فى النهاية إلى القضاء على ظاهرة التحيز، بحكم تعرض مستخدمى الشبكة لمواقع متعددة تركز على النسبية الثقافية، وتبرز أن التنوع الإنسانى بحر بلا ضفاف.

٦- الإنسان الجديد يستخدم اللغة بطريقة مختلفة عن الإنسان السابق، وقد يساعد فى كثير من الحالات على خلق لغة جديدة، تقوم على التركيز، واستخدام علامات لغوية جديدة.. وقد لوحظ أن مستخدمى البريد الإلكترونى فى الإنترنت أصبحت لهم لغة يتخاطبون بها، وهى زاخرة بعلامات الاختصار التى أصبحوا يتعاملون بها.

٧- اكتسب الإنسان الجديد طرقًا جديدة لإنشاء صداقات جديدة، ولتقوية الارتباط بالناس.

٨- أصبح يقع على عاتق الإنسان الجديد أن يواجه صراعات داخلية ومصادر جديدة للقلق، ومخاوف مستحدثة من الوقوع فى الجنون نتيجة انتقاله السريع والدائم من العالم الواقعى والعالم الافتراضى، وتثار هنا ظاهرة إدمان الإنترنت التى أصبحت تؤثر على حياة عدد من مستخدمى الشبكة بصورة سلبية، تبدو فى أعمال أسرهم والانعزال عن الأصدقاء.

هذه بصورة عامة السمات البارزة لمستخدمى الإنترنت، والتى تكشف عن اكتسابهم لقيم جديدة، وممارستهم لأنماط مستحدثة من التفكير، ولكن قد يكون من باب المبالغة الشديدة الزعم بأننا نشهد تخلق إنسان جديد، فنحن مازلنا فى

الواقع على عتبة تغيرات كبرى، ستلحق بالإنسان والمجتمع فى الألفية الثالثة نتيجة التطورات التكنولوجية العميقة[٥].

فى ضوء ما تقدم، نقول بدرجة كبيرة من الثقة إن التدفق المعلوماتى الذى يشهده العالم، والذى يتم عن طريق شبكات الإنترنت لن يقتصر تأثيره على الحاضر الملموس فقط، بل سيمتد ليشمل المستقبل القادم؛ لذا يجب الاهتمام بالحاضر والمستقبل المعلوماتى فى المنهج التربوى، حسب ما يوضحه الحديث التالى:

بالنسبة لموضوع الحاضر والمستقبل، وأيهما ينبغى أن يسبق الآخر من حيث الاهتمام به، يمكن التمييز بين الاتجاهين التاليين:

هناك من يرى أن أسطورة المستقبل قد استحدثت عن عمد، بقصد تحويل الانتباه عن المشكلات اليومية الملحة فى صميم الحاضر. كما أن النزعة المستقبلية - بحكم اتجاهها الطبيعى - تشيع ارتباكًا فى حياة أتباعها والمتحمسين لها، لأنها تركز الانتباه على المستقبل بدلاً من الاهتمام بالحاضر، وبكل ما هو كائن. كذلك، توجد بعض المشكلات التى تضرب جذورها بعمق فى الماضى، فإذا لم يتم علاجها، باتت عقبة كؤود فى سبيل تحقيق آمال وطموحات المستقبل.

وهناك من يرى أن العالم يقبل على حقبة تاريخية جديدة، وهى «حقبة التكنولوجيا العلمية». ويميل أصحاب الاتجاه السابق إلى الاستخفاف بالحاضر، على أساس أن الوقوف على طريقة استغلال أوقات الفراغ فى عصر الوفرة الآلية بات مشكلة المستقبل؛ لذا فإن الخلافات القائمة بين الدول بعضها البعض لن تلبث أن تصبح غير ذات بال، كما أن الصراع الطبقى الظاهر فى أية دولة من الدول يصبح مجرد حدث تافه، لا خطورة له على المدى البعيد، ويمكن إسقاطه تمامًا من حساباتنا.

أيضًا، يعيش العالم الآن فى الآلام المصاحبة لحركة مولد حضارة عالمية جديدة، ولكن بمجرد أن تتحقق إمكانات العهد العلمى المقبل، فسوف يُلتفت إلى بعض ظواهر وأحداث الماضى باستخفاف وتندر. لذا سوف ينظر إلى أى صراع أو خلاف، قد يحدث فى العصر التكنولوجى المقبل، على أساس أنه ظاهرة اعتباطية شبه عرضية وهامشية، بالقياس إلى المجرى الأساسى لتاريخ المستقبل.

والحقيقة التى ينبغى عدم إسقاطها أو إغفالها من حساباتنا، هى: «كما أن الماضى كان الأساس للحاضر الذى نعيشه الآن، فإن المستقبل هو الامتداد الطبيعى للحاضر، فالماضى والحاضر والمستقبل ثلاث حلقات متتالية متتابعة، ولا يمكن فصل واحدة منها عن الأخريين، وإلا انفك العقد بأكمله».

وعليه، فإن الحاضر الذى تنبثق جذوره من الماضى، كذا المستقبل الذى نأمل أن تكون ظروفه وإمكاناته أفضل بكثير من الحاضر، ينبغى أخذهما فى الاعتبار عند الحديث فى قضية إعداد المنهج، مع مراعاة أن المستقبل هو المهم فى حياة الإنسان والأمة على السواء، لذا يمكن غض البصر أو التضحية بالكامل بالحاضر والماضى معًا، إذا وقفا كعقبة كؤود أمام التطور الطبيعى الذى يقود للمستقبل.

والسؤال: ما علاقة الحديث السابق بقضية المعرفة الجديدة والمتجددة فى المنهج التربوى؟

الحقيقة، إن هذه القضية باتت شائكة للغاية، خاصة وأن الضباب يغلف الواقع الفعلى للتجديد المعرفى فى المنهج التربوى على أساس معطيات الحاضر، فما بالنا بالنسبة للمستقبل المجهول. إن العقل والمنطق يشيران إلى أهمية وضرورة إصلاح ما تحت أيدينا أولاً، ليكون الركيزة ونقطة الانطلاق للوصول إلى المأمول، الذى قد نحققه أو لا نحققه، وفقًا للظروف المستقبلية.

وبمعنى آخر، قد يكون ما نملكه رائعًا وصحيحًا بالفعل، وعلى الرغم من ذلك - لظروف من صنع أيدينا أو خارجة عن إرادتنا - قد نفشل فى تحقيق آمال وطموحات الحاضر، فما بالنا بالمجهول الذى لا نملكه، ولا نعرف الكثير عنه.

على أية حال، إذا استعرضنا الواقع الذى نعيشه أولاً، فسوف نجد أن المناهج التربوية بوضعها الحالي، لا تسهم فى تخريج نوعية جديدة وجيدة من المتعلمين ممن يكون لديهم خلفية علمية وثقافية مناسبة.

أيضًا، يشير الواقع الفعلى إلى انحصار أدوار المناهج التربوية فى إكساب جوانب معرفية بعينها، أما بقية الأهداف التربوية المرسومة والمحددة سلفًا، فلا تتحقق أبدًا.

فعلى سبيل المثال، لا يتحقق الهدف الخاص بإكساب المتعلمين المقومات التى تساعدهم على معايشة متطلبات الحياة المدرسية ذاتها، وفقا لما تمليه عليهم ظروف العصر. كذلك، لا تدرك نسبة كبيرة من المتعلمين المقصود بمفهوم التنمية العلمية، رغم الدور المهم الذى يؤيه هذا المفهوم فى حياة المتعلمين. وهذا وذاك، يؤكدان أن الدور الوحيد الذى يقوم به المنهج التربوى يقتصر على إكساب بعض الجوانب المعرفية، التى لا تناسب الانفجار المعرفى المتجدد دوما، وبالنسبة لبقية الأهداف التعليمية والتربوية للمنهج، فغالبا لا تتحقق، وإن ما يتحقق منها لا يكون بالكفاءة المطلوبة.

فى ضوء ما تقدم، يكون من المهم بمكانة، طرح السؤال التالى: ما دور المنهج التربوى لمقابلة المعرفة الجديدة والمتجددة، سواء أكان ذلك على مستوى الحاضر أم على مستوى المستقبل؟.

تتمثل إجابة السؤال السابق، فى الآتى:

١- تأكيد الحاضر:

من الصعب بمكانة إهمال الحاضر، على أساس أنه الشىء الوحيد الملموس، الذى يتعامل معه الإنسان بطريقة مباشرة. ومما يؤكد أهمية التعامل مع قضايا ومشكلات الحاضر بذكاء وفطنة، أنه فى ظل التباين فى الأفكار التى تحملها وتتضمنها التيارات المختلفة، بات الإنسان فى هذا الزمان، حائرًا، قلقًا، متوترًا، غير قادر - بدرجة كبيرة - على تحديد منهج حياتى له؛ لعدم فهمه أسباب ما يحدث حوله. كما أصبح الإنسان عاجزًا - بدرجة كبيرة - عن فهم أصول اللعبة وقواعدها، لذا لا يستطيع تحديد هوية أو مقصد توجهاته.

إذًا، بات تأكيد الحاضر مهمة إنسانية وحضارية وأخلاقية، ينبغى أن يشارك المنهج التربوى فى تحمل بعض أبعادها. والمثال التالى يعضد ويبرز صحة ما ذهبنا إليه:

إن الأمن القومى لأية دولة، ينبغى أن يقوم على دعائم بعينها، لعل أهمها:

التعليم والقضاء والجيش. ولقد وضعنا التعليم فى مقدمة الثلاثية السابقة على أساس أن المنهج هو أداة التربية المسئول بدرجة كبيرة عن التكوين الجذرى الفكرى للمتعلم، والذى يترتب على هذا التكوين الفكرى ماهية سلوك وأبعاد شخصية المتعلم فى المستقبل. والمنهج التربوى يؤثر فى المتعلم، بطريقة صريحة أو ضمنية عن طريق تأثير المواد الدراسية والأنشطة المدرسية الصعبة التى يتضمنها.

من المنطلق السابق، يكون للمنهج التربوى دوره المهم فى تأكيد الحاضر الملموس، عندما يهيئ الفرص المناسبة لخلق المواقف التعليمية، التى تنبثق أصولها وأركانها من الواقع الفعلى المحيط بالمتعلمين.

إن القضية لا تتمثل فقط فى مجرد نقل الواقع الفعلى المحيط بالمتعلمين داخل الفصول، فقد يتعذر تحقيق ذلك فى أحيان كثيرة، بسبب صعوبة النقل أو خطورته. ولكن البعد الأساسى فى قضية تأكيد الحاضر تتمثل فى **التعامل الذكى** مع المشكلات العديدة والمتنوعة التى يموج بها المجتمع.

والخطوة **الأولى** فى التعامل الذكى مع مشكلات المجتمع، تتطلب أن يتضمن المنهج المجالات التى تسمح وتسهم فى خلق المقدرة عند المتعلم ليبحث، ويبتكر، ويبدع، ويدرك لزومية وأهمية التفاعل مع ظروف العصر. أيضًا، يستوجب التعامل الذكى مع مشكلات المجتمع، أن يتيح المنهج المناسبات التى تساعد المتعلم فى أن يتطور للأفضل بالنسبة لذاته، وأن يطور الظروف المعيشية المحيطة به، لصالحه ولصالح غيره.

ولكى يخطو المنهج التربوى الخطوة الأولى التى سبق التنويه إليها، ينبغى أن يتم تعليمه، أو أن يتحمل مسئولية تدريس موضوعاته، المعلم الذى يؤمن، ويؤكد فى الوقت ذاته، ديمقراطية الموقف التدريسى، حيث يتيح الفرص المناسبة أمام المتعلم؛ لممارسة بعض الأنشطة، وليكون له رأيه الخاص فيما يعرض عليه من مشكلات دراسية أو مجتمعية، وليفكر مستغلاً أقصى طاقاته الذهنية والعقلية فى الأعمال التى يقوم بها طواعية أو يكلف بها.

أما الخطوة **الثانية** فى التعامل الذكى مع مشكلات المجتمع، فتتطلب البحث عن الحلول المبتكرة وغير التقليدية لتلك المشكلات. ويمكن تحقيق ذلك عن طريق عرض جميع المعلومات والبيانات بأمانة وصراحة عن أية مشكلة ـ حتى وإن كانت هذه المشكلة تمس العقيدة، أو تمس خصوصيات بعض الناس المهمين فى المجتمع ـ ثم مناقشة المعلومات والبيانات بشجاعة، ودون مواربة للوصول إلى الحل المأمول.

وبعد أن يخرج المعلم من باطن المتعلم كل ما لديه من طاقات الإبداع والابتكار وأساليب التفكير، وبعد أن يطرح المعلم المشكلات، ويطلب من المتعلم استخدام جميع آلياته (العقلية والجسدية والعاطفية... إلخ)، فى حل تلك المشكلات، تكون الخطوة **الثالثة** للتعامل الذكى مع مشكلات الحاضر، وهى **تطويع الحلول لاستخدامها فى حل المشكلات المشابهة، ثم تطوير الحلول ذاتها** لتكون مرتكزات وأسانيد لحلول مشكلات مستقبلية متوقعة، وبذا يكون للمتعلم رؤية مستقبلية، وهو يتعامل مع الحاضر، وذلك ما نتعرض له فى الحديث التالى.

٢- الاستعداد للمستقبل:

أوضحنا فيما تقدم أن التعامل مع الحاضر، ينبغى أن يكون الركيزة الأساسية للاستعداد للمستقبل. والحقيقة، أنه من الغباء أن يقول الإنسان «أعيش اليوم، لأننى سأرحل غدًا»، لسببين مهمين، هما:

١- صعوبة تحديد ضمانات موعد الرحيل فى الغد!!

٢- وبفرض تحقق الرحيل فى الغد، ينبغى أن يضع الإنسان المستقبل فى حساباته، حتى وإن كان ذلك لحساب الآخرين.

الحقيقة، إن الاستعداد للمستقبل لا يتنافى أو يتعارض مع الحياة الحاضرة، لأن المستقبل ـ ببساطة ـ يمثل الامتداد الطبيعى للحاضر.

إن مواكبة الإنسان لفكرة المستقبل تتطلب قدرته العميقة لصياغة الصور

الإيجابية للمستقبل، الذى يمثل بعدًا جديدًا للعالم فى الزمان والمكان، علمًا بأن البؤرة الحقيقية للمستقبل ليست وصفية ولا تفسيرية فى حد ذاتها، ولا هى تنبؤية فى الأصل، وإنما تتمثل فى التوضيح والتقويم للقيم والأهداف، وفى العمليات ذات القيمة رفيعة المستوى للعالم والمهندس والطبيب والمعلم والمتعلم... إلخ.

وقبل الاستطراد فى تفسيرات هذا الموضوع، ينبغى التنويه إلى خطورة تقليص أدوار الحاضر أو إلغائها تمامًا على أساس أن المستقبل - والمستقبل فقط - هو المهم والأجدى.

أيضًا، يجدر التنويه إلى وقوع الكارثة بالتأكيد، إذا حبسنا أنفسنا فى عالم المستقبل، الذى قد لا نريده والذى قد يفرض علينا فرضًا، وبذا يكون عدائيًا إلى الحد الذى يهددنا بصورة مباشرة، كما هو الحال بالنسبة للعولمة بصفتها الواقع الذى يلوح لنا فى الأفق.

وبالطبع، فإننا لسنا ضد المعرفة الجديدة والمتجددة، ولو للحظة واحدة أو قيد أنملة، لأنها تمثل فى الأساس الواقع المستقبلى، الذى ينبغى أن نستعد له لنتلاقى معه على أساس الند للند، من خلال الحرية والمسئولية الحقيقيتين اللتين تساعدانا فى معرفة اختيار المستقبل الذى نريده نحن، وليس المفروض علينا قسرًا.

وإذا كان عالم الاجتماع (ريمون كاربانتييه)، يقول: «أما بالنسبة إلينا فالغير حتى الآن إما أتباعًا لنا وإما أعداء. فالأتباع نعنى بهم من نعتمد عليهم، ومن يتحقق اتفاقنا وإياهم طبيعيًا وعضويًا، والأعداء نعنى بهم منافسينا وخصومنا الذين لا يتميزون فى طبيعتهم العمياء إلا بأنهم أدهى منا حيلة وأكثر عددًا، ويعملون لتأخيرنا وتهديمنا»[٦]، فإننا ننظر إلى المستقبل فى ظل النظام العالمى الجديد من منظور يختلف تمامًا عن وجهة نظر (كاربانتييه). فالمستقبل بالنسبة لنا، يعنى مزيدًا من الحرية والعدل، كما يعنى تكاتفًا مقصودًا من أجل مقاومة الإرهاب وتأكيد قيم السلام.

وبذا تنعم البشرية بعامة، ونسعد نحن بخاصة، بالرخاء والتناغم والتلاقى

والأمن والطمأنينة. والتعامل مع الآخر وجهاً لوجه. دون خوف أو فزع اضطراب

والسؤال: كيف يساعد المنهج التربوى المتعلم فى الاستعداد للمستقبل؟

وللإجابة عن السؤال السابق، نقول إن المنهج التربوى يجب أن تتضمن موضوعاته ما يساعد المتعلم لمقابلة المستقبل والاستعداد له، عن طريق مناقشتها بعقلانية وموضوعية، لذا ينبغى أن تدور محتويات المنهج حول الموضوعات التالية:

- التمسك بالتراث فقط، بمثابة ردة للتخلف والسقوط فى بحر الظلمات.
- الاهتمام بالحاضر فقط، بمثابة أنانية مقصودة تحرمنا وتحرم الأجيال التالية من فرص التعامل الصريح، والتلاحم المباشر مع المستقبل عندما يحل أو يأتى أوانه.
- الالتفاف حول المستقبل فقط، بمثابة دعوة للحرمان من الحاضر الملموس، قد تؤدى إلى الصدام.

والحقيقة، إن التطلع للمستقبل بفهم ووعى، يتطلب من المعلم الذى يتحمل مسئولية تدريس المنهج التربوى، دراسة الموضوعات التالية، من منطق ومنطلق أن المستقبل هو الامتداد الطبيعى للحاضر:

- القيم التى يمكن تقديمها للمستقبل.
- مدى إمكانية الإنسان استثمار المستقبل وفقًا لإرادته، وتحقيقًا لمصلحته.
- المناشط الإنسانية التى يتحد فيها البشر، وتجعل الحياة تستمر، وتصنع المستقبل الجميل لكل إنسان فى أى مكان.
- حدود حرية الإنسان فى المستقبل، وأساليب جعلها نعمة وسعادة له.
- مدى تأثر الخبرات، التى يكتسبها الإنسان فى حاضره، إذا اختلفت الأشياء فى المستقبل عما هى عليه الآن

- ترتيب الأشياء والمعانى المجردة فى المستقبل، بالنسبة للأشياء المادية (الطعام والملبس والمأوى والوظيفة والعائلة والصحة).

وأخيراً، ينبغى أن يراعى عند النظر إلى المعرفة الجديدة والمتجددة عند بناء المنهج وتصميمه، ضرورة وأهمية أخذ المبدأين التاليين فى الاعتبار:

* أن الأسلوب الذى نتخيل به المستقبل له تأثير قوى على القرارات التى نتخذها اليوم.
* أن الإنسان هو السبيل للعبور من سلطة الماضى إلى السلطة المتوقعة لتغيرات المستقبل الواسعة.

فإلقاء الضوء على المبدأين السابقين، يساعد الطلاب على فهم وتفهم وإدراك الأمور المهمة التالية:

١- يندفع عالم الغد نحونا بمعدل متزايد السرعة، وعلينا أن نختار ما بين تجاهل المستقبل تمامًا، أو مواجهة التغيرات المستقبلية المتوقعة، ومحاولة مسايرتها والتكيف معها، بهدف محاولة بناء مستقبلنا بأنفسنا، على مستوى عالمنا الصغير (الإنسان، الأسرة، الأصدقاء)، وعلى مستوى العالم الأكبر (عالم القرارات الجماعية، والصراع فى المجتمع، والمقاييس القومية والعالمية).

٢- المستقبل مقبل علينا، ويتدخلنا أو دونه، ستتغير حياتنا بدرجة ما، قد تكون محددة أو شاملة، وأحيانًا قد يفوق هذا التغير مجال الخيال المعاصر، وذلك بالنسبة للتغيرات المتوقعة فى التحكم الجينى والهندسة الوراثية، واستعمال الكواكب الأخرى والسفر الموقوت، والفراغ اللانهائى، والديمقراطية المباشرة خلال الاستفتاءات المبرمجة، والذكاء المصطنع، والإنسان الآلى المثقف، والأطعمة التركيبية، وزراعة المحيطات، والتحكم فى الطقس.

٣ إذا حدث ما تقدم، يرفع التحدى الأعظم للعلوم؛ خاصة العلوم الاجتماعية والإنسانية والنفسية، إذ يجب عليها إتاحة الفرص المناسبة أمام الإنسان لخلق ونقل معلومات، عن طريقها يستطيع الإنسان فهم المستقبل ومسايرته، على الرغم من أن المستقبل قد يكون مجهولاً تمامًا بالنسبة للإنسان فى وقته الحالى.

٤- تغيرات المستقبل متشابكة ومتبادلة التأثير فيما بينها، وذلك يتطلب التعامل مع تيارات التغير بحساسية مفرطة وقناعة عالية، حتى يمكن التكيف السليم، والتصرف الصحيح المتجدد تجاه تلك التغيرات.

٥- إن ترويض المستقبل والسيطرة عليه، يتطلب إيجابية وإسهام الطلاب فى الاستعداد اليوم من أجل التعلم للمستقبل. بمعنى، ينبغى توجيه تعليم الطلاب لتحقيق الهدف «كيف تتعلم أن تتعلم»[٧].

فى ضوء ما تقدم، نقول بدرجة كبيرة من الثقة، ما يلى:

الحاضر موجود وملموس، ويمكن إدراك شتى جوانبه بسهولة، والمستقبل آت آت، ولن يرحم المتقاعسين أو المتكاسلين.

لذا، فإن مراعاة المعرفة الجديدة والمتجددة فى بناء المنهج التربوى، بات مطلبًا قوميًا وعالميًا على السواء، وبخاصة:

* إرهاصات المستقبل تبشر بأن التغييرات المادية والمعنوية التى قد يحملها لنا المستقبل، قد تكون مشرقة ومفجعة آنيًا.
* تباشير المستقبل تحمل بين طياتها زيادة الفجوة الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية.. إلخ، بين دول الشمال ودول الجنوب.
* التنبؤ بالمستقبل يشير إلى حدوث ثورة معلوماتية متوقعة، خلال العشرين سنة الأولى من القرن الحادى والعشرين.
* استشراف المستقبل يؤكد استمرار هجرة العمالة من الموظفين الإداريين والعمال الفنيين من الدول المتقدمة إلى الدول النامية، وفق مخطط دقيق لاستنزاف ثروات الدول النامية

أيضا، يشهد عالم اليوم عديداً من المتغيرات فى القيم المتوارثة والتراثية، وفى الدراسات والقرائن العلمية. ولسوف يتسم عالم الغد، وفق ما تشير به الدلائل، بالمزيد من الانقسامات والتناقضات والتوترات، وزيادة التنافس بين أساطين التجارة ورجال الاقتصاد، وحدوث اضطرابات ومصادمات خطيرة ومتعددة بين الشباب وحكوماتهم، وفك العروة الوثقى على المستويين: الفردى والجمعى على السواء، وهجرة العقول الواعدة والذكية من الدول النامية إلى الدول الغنية.

والخلاصة، أن السلبيات والهزات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية.. إلخ، التى تحدث الآن، سوف تزداد حدتها وكثافتها فى المستقبل، ومن الصعب أن يفلت منها الإنسان، لذا يكون من المهم أن يكون للمنهج التربوى - بعد إعداده بما يتوافق مع متطلبات عصر المعلوماتية - دوره المميز والمتميز فى مساعدة المتعلم على التعامل الذكى مع الحاضر، بكل ما يموج به من معضلات ومشكلات، وفى مساعدة المتعلم على مواجهة المستقبل الآتى، عن طريق استخدام وتوظيف آلياته التى يمتلكها بأعلى وأقصى كفاءة ممكنة.

المراجع مرتبة كما جاءت بالفصل

(١) مديحة النحراوى، «الجامعات الإلكترونية»، **جريدة الأهرام** فى ٢/٨/٢٠٠٠.

(٢) جريدة الأهرام (دون محرر)، «كلينتون يدعو لاستخدام تكنولوجيا المعلومات فى تعميق الديمقراطية»، ١/٨/٢٠٠٠.

(٣) جاك أتالى، **الألفية الجديدة.. الرابحون والخاسرون فى النظام العالمى القادم**، القاهرة: وزارة التربية والتعليم بالتعاون مع المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية (سلسلة الكتب المترجمة: ١)، ٢٠٠٠، ص ٣٨.

(٤) الفن وهايدى توفلر، **نحو بناء حضارة جديدة.. سياسات الموجة الثالثة**، القاهرة: وزارة التربية والتعليم بالتعاون مع المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية (سلسلة الكتب المترجمة: ٨)، ١٩٩٥، ص ص ٩٢-٩٣.

(٥) السيد يسين، «اكتشافات قارة إنسانية مجهولة»، **جريدة الأهرام** فى ١٧/٨/٢٠٠٠.

(٦) جاءت مقولة (كاربانتييه) فى المصدر التالى (دون محرر):

مجلة المعرفة، «نحن والعولمة: من يربى الآخر؟»، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، العدد ٤٦، أبريل/ مايو ١٩٩٩، ص ص ١٤-١٥.

(٧) مجدى عزيز إبراهيم، **المنهج التربوى والوعى السياسى**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٨، ص ص ١٢٣-١٢٥